صحيفة المدينة المنورة وإسهامها في إرساء قيم التعايش الديني وحماية الشباب من آفة التطرف

د. كريمة نور عيساوي

الملخص:

لا أحد يُمكنه أن يُنكر أن الإرهاب أصبح في العقود الأخيرة، من سمات العصر الحديث. و لا تمر السنة دون أن تبلغ أسماعنا وقائع أحداث دامية وقعت هنا أو هناك، وكان من ضحاياها أبرياء لا ذنب لهم سوى أنهم يختلفون عن مقترف الجريمة/ الإرهابي في اللون أو الدين أو المذهب أو العرق. غير أن أشد هذه العمليات الإرهابية بشاعة، وأكثرها إيلاما هي تلك التي تختبئ تحت قناع دين معين. ومن سوء حظ المسلمين أن عوامل شتى تضافرت كلها في تشكيل صورة نمطية يحملها الآخر / الغرب عن الإسلام تتلخص في اقترانه المباشر بالعنف، والاعتقاد الذي أصبح من المُسلمات غير قابلة للتزعزع أو الشك بأن الإرهاب صناعة إسلامية. ومما أسهم في ترويج هذه الصورة النمطية هو التطور غير المسبوق لوسائل الإعلام والتواصل التي كثيرا ما تكون مُوجهة لتخدم، بشكل مدروس واحترافي، مصالح الطرف الأقوى. كما لا ينبغي أن ننسى بأن العداء التاريخي تزداد شقته اتساعا بين الإسلام والغرب، وذلك على الرغم من الجهود التي تُبذل من الطرفين لتجاوز هذه الوضعية غير المريحة.

غير أن مصارحة الذات تقتضي منا الخروج من مأزق جلد الذات الملازمة لنا إلى آفاق أوسع ألا وهو تعقب واستنطاق النصوص الدينية وغيرها التي تُقدم دلائل ملموسة بأن الإسلام برئ من التهم الباطلة التي تُنسب إليه. سنُحاول في هذا الإطار أن نُبرز من خلال ورقتنا العلمية أهمية «صحيفة المدينة» التي تعتبر أقدم دستور مدون في العالم، حدد في صيغة أولية غير مسبوقة الملامح العامة لدولة الإسلام الجديدة دون أن أي تمييز بين مواطنيها من حيث اللون أو العرق أو الجنس. وقد نظمت الصحيفة العلاقة

بين جميع مكونات المجتمع المديني (المهاجرون والأنصار واليهود..)، مع التركيز في هذه المداخلة على العلاقة بين المسلمين واليهود في ظل نظام إسلامي يطبعه التسامح والتعايش والتكافل ونصرة المظلوم، بعيدا عن كل مظاهر الإقصاء والتطرف. والغاية المثلى أن نجعل هذه الصحيفة وغيرها من العقود والمواثيق مرجعا أساسيا أو خارطة طريق واضحة المعالم تُرشد شباب أمتنا إلى المنهج القويم للديانة الإسلامية السمحة، وتحذرهم من مخاطر التطرف ومزالق العنف. فما يجمع بين الإرهابيين ليس هو الدين، وإنما الجهل به لأن الدين الإسلامي هو نور ومعرفة وحكمة وسبيل للسلام.

Abstract

In recent decades, none can deny that terrorism has become the feature of the modern era; there is no year can passes without terrorist attacks and bloody events and assassination that took place here or there. The victims of these accidents are innocent people, and their only guilt is that they are different in color, religion, sect or race from terrorists. However, the most heinous and painful terrorist attacks are hidden under the name of religion.

It is the misfortune of Muslims that various factors have combined to form a stereotypical image about Islam, which reflects how the other - the West -see Muslims. This stereotypical image is directly associated with violence and the undoubtable belief that terrorism is an Islamic industry.

The fast spreading of this stereotype has come as a result of the unprecedented development of the media means, which are often directed to serve, in a thoughtful and professional manner, the interests of the stronger party. Nor should we forget that the historical animosity between Islam and the West is widening, despite the efforts made by both parties to overcome this uncomfortable situation.

However, in this situation we have to be frankly clear with ourselves in order to get out of the dilemma of self-flagellation to broader horizons, this help us trace and interrogate the religious texts that provide an tangible evidence that Islam is innocent of the false accusations.

In this context, we will try to highlight, through this academic paper, the importance of the charter of Medina, which is the oldest written constitution in the world that defined unprecedentedly the general features of the new Islamic state without any discrimination between its citizens in terms of color, race or gender. The charter of Medina organized the

relationship between all members of Median society (immigrants (Al-Muhajirin, supporters (Al-Anssar) and Jews...).

In this paper, I will focus on the relationship between Muslims and Jews under an Islamic system characterized by tolerance, coexistence, interdependence and the support of the oppressed people, away from all manifestations of exclusion and extremism.

The main goal is to make this charter of Medina and other contracts and charters as basic reference, or a clear roadmap, that guides the youth of our nation to the correct approach of Islam as a tolerant religion, meanwhile warning them of the dangers of extremism and the pitfalls of violence. What makes the terrorists together is not religion, but the ignorance of religion, because the Islamic religion is a knowledge, wisdom and a path to peace.

مقدمة

لا أحد يُمكنه أن يُنكر أن الإرهاب أصبح، في العقود الأخيرة، من سمات العصر الحديث. ولا تمر السنة دون أن تبلغ أسماعنا وقائع أحداث دامية وقعت هنا أو هناك، وكان من ضحاياها أبرياء لا ذنب لهم سوى أنهم يختلفون عن مقترف الجريمة/ الإرهابي في اللون أو الدين أو المذهب أو العرق. غير أن أشد هذه العمليات الإرهابية بشاعة، وأكثرها إيلاما هي تلك التي تختبئ تحت قناع دين معين. ومن سوء حظ المسلمين أن عوامل شتى تضافرت كلها في تشكيل صورة نمطية يحملها الآخر / الغرب عن الإسلام تتلخص في اقترانه المباشر بالعنف، والاعتقاد الذي أصبح من المُسلمات غير قابلة للتزعزع أو الشك بأن الإرهاب صناعة إسلامية. ومما أسهم في ترويج هذه الصورة النمطية هو التطور غير المسبوق لوسائل الإعلام والتواصل التي كثيرا ما تكون مُوجهة لتخدم، بشكل مدروس واحترافي، مصالح الطرف الأقوى. كما لا ينبغي أن ننسى بأن العداء التاريخي تزداد شقته اتساعا بين الإسلام والغرب، وذلك على الرغم من الجهود التي تُبذل من الطرفين لتجاوز هذه الوضعية غير المريحة.

وإذا كان للغرب يد في توجيه أصابع الاتهام إلى الإسلام، واعتباره مسؤولا عن كل هذا الشر الموجود في العالم (التضييق على المرأة، اضطهاد الأقليات...)، لاسيما أنه يحتكر كبريات شركات الإعلام العملاقة فإن مصارحة الذات تقتضي منا الخروج من مأزق جلد الذات الملازمة لنا إلى آفاق أوسع ألا وهي تعقب واستنطاق النصوص الدينية وغيرها التي تُقدم دلائل ملموسة بأن الإسلام برئ من التهم الباطلة التي تُنسب إليه. ومن النصوص التي ينبغي الالتفات إليها ودراستها «صحيفة المدينة» التي حددت في وقت مبكر من تاريخ الإسلام العلاقة بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى (اليهود على وجه التحديد). غير أن هذه العملية برُمتها قد تكون دون جدوى ما لم يصل تأثيرها إلى أوساط الشباب الذين كثيرا ما يكونوا ضحايا فكر إقصائي فيتحولون من بناة حضارة تؤمن بالتعدد الديني، والتسامح وغيرها من القيم الإسلامية الكبرى إلى دعاة حرب.

سنُحاول في هذه الدراسة أن نتناول العناصر الآتية:

- الوضعية الدينية لشبه الجزيرة العربية.
- النصوص القرآنية المؤسسة للحوار بين الأديان.
- «صحيفة المدينة»: ظروف النشأة.
- «صحيفة المدينة» في ضوء مناهج النقد التاريخي.
- علاقة المسلمين باليهود من خلال «صحيفة المدينة».
- مدى حضور «صحيفة المدينة» في أوساط الشباب.

الوضعية الدينية لشبه الجزيرة العربية:

لم يظهر الإسلام في مجتمع يتألف فقط من الوثنيين الذين يعبدون الأصنام، وإنما وجد نفسه أمام ديانات أخرى، لاسيما في يثرب/ المدينة المنورة التي كانت تضم قبائل يهودية يهودية مشهورة مثل بني قريظة وبني قينقاع وبني النضير. وهذا ما يُوضحه هيربرت بوسه Herbert Busse: «أما في المدن الواقعة في القسم الشمالي لطريق البخور فوجدت جماعات يهودية لا يُعرف عن بداياتها إلا القليل أو لا يعرف عنها شيئًا البتة. والمدن الأكثر شهرة من الشمال حتى الجنوب هي تيماء وخيبر ويثرب/ المدينة. وكانت الجماعات اليهودية في المدينة مقسمة إلى «عشائر»، ولعبت ثلاث جماعات منها دورا خاصا في حياة النبي وهم بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة»[1].

ناهيك عن وجود جماعات نصرانية في مناطق أبعد عن محيط مكة والمدينة، وتحديدا في شمال شبه الجزيرة العربية من قبائل غسان وقضاعة. فلم يكن حسب فاروق حمادة للنصارى «استقرار كبير أو حضور كثيف بقرب النبي صلى الله عليه وسلم في مكة والمدينة وقد يكون هناك منهم عابر سبيل مترحل، أو تاجر ساعة متنقل، ولم يثبت عندي أن طائفة من النصارى كبيرة أو صغيرة كانت تسكن مكة أو المدينة أو ما حولهما،

(1) هيربرت بوسه: أسس الحوار في القرآن الكريم، دراسن في علاقة الإسلام باليهودية والمسيحية، ترجمة أحمد محمود هويدى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005، ص 40

قبل الإسلام أو بعده سوى ما قدمت، أما مكة فعربية خالصة، وأما يثرب فسكنها يهود في مجتمعات معروفة قبل الإسلام»[1]. وكان عرب الجزيرة، بالإضافة إلى ذلك، على اتصال وثيق بالأمم الأخرى، وذلك عن طريق التجارة. وهو الأمر الذي سيُمكنهم من الاتصال بأديانها، والتعرف عليها.

النصوص القرآنية المؤسسة للحوار بين الأديان:

إن هذه الوضعية التي تتميز بتعدد الأديان، والتي كثيرا ما يتم تجاهلها أو التقليل من أهميتها، ستدفع النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى تحديد موقف الإسلام منها. وبما أن الإسلام دين السلام فإنه لا يمكن إلا أن يُقر بالحوار بين الأديان منهجا في التعامل مع الغير. إن الحوار كما أكد على ذلك عبد الهادي بوطالب نُظم بعناية عن طريق الوحي في آيات قرآنية واضحة الدلالة لضبط هدفه وطرائق استعماله. وبذلك أصبح الحوار نهجا ربانيا، أي جزءا من عقيدة المسلم ومن بين ثوابتها التي لا تقبل التغيير، وألزم به صاحب الرسالة أولا ثم من تبعه من المسلمين فيما بينهم[2].

ومن هنا فما أكثر النصوص القرآنية المؤسسة للحوار بين الأديان، والتي تتفق في مجملها على المبادئ الآتية:

وحدة الأصل الإنساني: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا»[3].

تكريم الإنسان بصرف النظر عن جنسه أو دينه: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا»[4].

الدعوة إلى التعارف: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ»[5].

(1) فاروق حمادة: العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، دار القلم دمشق، ص 10
(2) عبد الهادي بوطالب: حقيقة الإسلام، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، بيروت، 1998، ص 81
(3) سورة النساء، الآية 1
(4) سورة الإسراء، الآية 70
(5) سورة الحجرات، الآية 13

الاختلاف كامن في طبيعة الكون وجبلة الخلق: «وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ»(1). «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ»(2).

حرية المعتقد وممارسة الشعائر الدينية: «لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»(3).

حرية الدعوة إلى الدين: «ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ»(4).

إستراتيجية التعايش: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ»(5).

ويجب التأكيد أن فكرة التعايش السلمي بين الأديان التي دعا الإسلام إليها، والتي ستجد طريقها إلى التنفيذ على يد النبي محمد صلى الله عليه وسلم فيما يُعرف بصحيفة المدينة لم تكن مقبولة. ويكفي أن نعود إلى حقبة ما قبل ظهور الإسلام لنلاحظ أن الانغلاق على الدين الواحد، ونبذ ما عداه كان هو السمة الغالبة التي ميزت العلاقة المتوترة والمتبادلة بين النصرانية واليهودية. فقد كان نصارى الإمبراطورية الرومانية، بعد إعلانها المسيحية دينيا رسميا في القرن الرابع الميلادي، يضطهدون اليهود انتقاما منهم لاضطهادهم المسيح، والحكم عليه بالصلب. وتنوعت أساليب الاضطهاد ما بين الصلب أو التحريق بالنار. وفي القرن السادس الميلادي، وتزامنا مع قيام حكم باليمن على رأسه ذو نواس الذي تخلى عن النصرانية، واعتنق اليهودية، تعاظمت بين يهود فلسطين نزعة الثأر من نصارى اليمن الموجودين خاصة في نجران، ووجدوا من هذا

(1) سورة هود، الآية 118.
(2) سورة الروم، الآية 22.
(3) سورة البقرة، الآية 256.
(4) سورة النحل، الآية 125.
(5) سورة آل عمران، الآية 64.

الحاكم تأييدا لهم. وتجلى ذلك في تحريق كنائسهم، وجمع معتنقي النصرانية في واد باليمن سماه القرآن الكريم بالأخدود، وتصفيتهم بإحراق أجسادهم ودفنهم جملة فيه. وكانت هذه أول محرقة جماعية يتعرض لها معتنقو النصرانية[1]. وقد وردت هذه القصة في سورة البروج «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ *»[2].

«صحيفة المدينة»: ظروف النشأة

كان التناحر بين الأديان مُتفشيا قبل ظهور الإسلام، ولم تكن المدينة المنورة التي هاجر إليها الرسول صلى الله عليه وسلم بأحسن حال. فقد عرفت هي كذلك أنواعا أخرى من التناحر القبلي أو غيره التي تُسهب كتب الأخبار في ذكر صور منه. وحينا نستحضر هذه الصور ونتأمل مضامينها سنُدرك، لا محالة، التغيير الجذري الذي سيطرأ عليها بمجرد استقرار النبي بها، وشروعه في إشاعة روح المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وتقريب شقة الخلاف بين المسلمين واليهود، وأن يحولها في فترة قياسية إلى «مدينة» تنعم بقسط وافر من الأمن والاستقرار والتعايش السلمي، ولم يمنعه من تحقيق هذه الغاية النبيلة تعدد أنسابها القبلية، واختلاف أديانها. غير أن الخطوة العملاقة في مجال ترسيخ قيمة التعايش السلمي بين الأديان ستتحقق في «صحيفة المدينة» التي نظمت علاقات المسلمين مع المشركين واليهود في أسلوب حضاري رفيع غير مسبوق. وتُعتبر هذه الصحيفة في نظر الكثيرين (محمد حميد الله وعبد الهادي بوطالب وغيرهما) أقدم دستور مدون في العالم، حدد في صيغة أولية الملامح العامة لدولة الإسلام الجديدة دون أن أي تمييز بين مواطنيها من حيث اللون أو العرق أو الجنس أو الدين[3].

(1) عبد الهادي بو طالب، مرجع سابق، ص 85.

(2) سورة البروج من الآية 1 إلى الآية 9.

(3) سعيد كفايتي: الحوار في الإسلام، الدروس المستخلصة، منشورات مقاربات، فاس، 2016، ص 9.

لكن قبل الحديث عن مضمونها، وخاصة البنود التي تُحدد العلاقة بين المسلمين واليهود أو الأقليات إذا ما أردنا استعمال هذا المصطلح الجديد في العلوم الإنسانية، سيكون من المفيد أن نتناولها باعتبارها وثيقة مكتوبة أثارت، منذ بداية الاهتمام بها في العصر الحديث، جدلا كبيرا بين الباحثين تأرجح ما بين الاعتداد بها والتشكيك في صحتها. ويقف على رأس المشككين في صحتها المستشرق جولتسهير I. Golziher الذي نظر إليها في ظروف لم تكن بالنسبة إليه ملائمة للمحافظة على النص المكتوب، وخاصة في سياق اشتهر بوضع الحديث النبوي[1].

وما ينبغي التركيز عليه هو أن كتابة صحيفة المدينة أو الوثائق بصفة عامة هو امتداد لتقليد سابق يتمثل في تحرير قريش مكة لبعض العهود والمحالفات بينهم وبين القبائل المجاورة، إلا أن ذلك كان بحسب حميد الله منحصرا في دائرة محدودة لا يتعداها[2]. ومن المؤكد أن ظهور الإسلام، وبداية انتشاره كان يحتاج إلى تحرير مثل هذه الوثائق، وذلك للتعبير عن طبيعة العلاقات السياسية أو الدولية التي تربطه بالأمم الأخرى. والواقع أن أغلب هذه الوثائق ضاعت، ولم تصل إلينا في صورتها الأصلية. وما بقي منها إلا الشيء اليسير مثل كتاب النبي إلى المقوقس وكتاب النبي إلى المنذر بن ساوى وكتاب النبي إلى النجاشي. غير أن رواة الحديث والمؤرخين اعتنوا بنقل أجزاء منها.

وما يسري على هذه الوثائق ينطبق أيضا على «صحيفة المدينة» التي نجد لها ذكرا في الكثير من المصنفات الإسلامية الباكرة والوسيطة سواء تعلق الأمر بمصنفات في التاريخ أو الحديث أو السياسة الشرعية والأحكام السلطانية أو الفقه الإسلامي أو غير ذلك من المصادر الأخرى. يقول هشام جعيط معلقا: «من المدهش أن يمر عليها كبار المؤرخين القدامى من دون ذكرها، وهناك آخرون لا ينيطونها بأهمية كبرى، إذ يكتفون بالقول إن النبي حل مشكلة الديات (المعاقل) ليس إلا. زد على ذلك أنه لا توجد أية إشارة إليها البتة في القرآن، ربما لأن الأمر يتعلق بعمل سياسي وليس بفرض ديني»[3].

(1) Michael Lecker : The Constitution of Medina, Muhammad’s First Legal Document, The Darwin Press, Inc, Princeton, New Jersey, 2004, p 2

(2) محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت، 1985، ص 23.

(3) هشام جعيط، في السيرة النبوية (3) مسيرة محمد في المدينة وانتصار الإسلام، دار الطليعة، بيروت، ص 61

«صحيفة المدينة» في ضوء مناهج النقد التاريخي

ولا شك في أن أقدم مصدر لهذه الوثيقة هو سيرة رسول الله لمحمد بن إسحاق (ت151هـ) وكتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت224هـ). وقد تكرر ذكرها بعد ذلك في صيغ مختلفة، وبإسناد وبدون إسناد في مصادر أخرى مثل سنن البيهقي (ت458هـ)، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير لابن سيد الناس (ت734هـ)، والبداية والنهاية لابن كثير (ت744هـ)، وفي أحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية (ت 758هـ). فيما تسكت مصادر مهمة عن الإشارة إليها مثل طبقات ابن سعد (ت230هـ)، وأسد الغابة لابن الأثير (ت630هـ)، وسير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي (ت748هـ).

وقد اختلف الباحثون في تاريخ كتابة صحيفة المدينة، وتساءلوا عن إمكانية أن تكون قد كُتبت على مراحل. ويذهب وليام مونتجومري واط William Montgomery Watt إلى القول بأن بداية كتابتها كان في 622م أو 624م. ولم تعرف صيغتها النهائية إلا في 627م أي في السنة الخامسة من الهجرة بعد أن تم تغيير أو حذف أو إضافة بعض البنود لتتناسب مع التخلص من القبائل اليهودية الثلاث (قريظة، بني قنيقاع، بني قريظة)، والإحجام عن الإشارة إليهم بالاسم في هذه الوثيقة[1]. ويرى فلهاوزن أن الوثيقة كُتبت قبل معركة بدر، أي بعد هجرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، معللا ذلك بأن كتابة العهود والمواثيق كانت مألوفة بالنسبة إليه باعتباره قادما من مكة. أما جريم فيعتقد أنها كُتبت بعد معركة بدر، أي بعد السنة الثانية من بعد الهجرة، مبينا أن بعض البنود تُظهر السلطة التي امتلكها النبي في المدينة، والتي لا يمكن فهمها إلا في سياق انتصار المسلمين في معركة بدر. الأمر الذي سيرفع من شأن المسلمين، ويزيد من قوتهم في المدينة وما يحيطها.

والأرجح أن الوثيقة كُتبت على شكل دفعات وفي أوقات متعددة. والمتمعن في بنودها 47 حسب فلهاوزن أو 53 حسب حميد الله يرى أنها لا تمثل طرفين اثنين فقط مثلما هو في الاتفاقيات والمعاهدات، بل هناك أطراف متعددة عملت الوثيقة على تنظيم العلاقة فيما بينها. يمكن تقسيمها إلى ثلاث مجموعات: مجموعة تنظم العلاقة بين

(1) William Montgomery Watt : Mahomet à Médine, Payot, Paris, 1959, p 412.

المهاجرين والأنصار، ومجموعة ثانية تحدد العلاقة بين المسلمين واليهود، ومجموعة ثالثة توضح طريقة تعامل المسلمين مع مشركي قريش باعتبارهم أعداء. والظاهر أن هذه الاتفاقيات التي كُتبت في أوقات متفرقة لم تُدمج في وثيقة واحدة ومشتركة إلا في وقت لاحق.

وعلى الرغم من كل الأدلة التي في تطعن صحة «صحيفة المدينة» بدعوى أن مصادر إسلامية أساسية سكتت عن ذكرها، وأن الخلل يعتريها من حيث المتن ومن حيث السند فإن حضورها المتكرر في مصادر أخرى لا يشكك في أصالتها التاريخية. وربما يرجع عدم الالتفات إليها قديما، وتوجيه الأنظار إليها إلى أن موضوع تحديد العلاقة بين المسلمين وغيرهم لم يكن يحظى آنذاك بالأولوية لدى العلماء المسلمين. القدامى. فلم يكن لمؤرخي الوثيقة ومؤرخيها الأول أو اللاحقين تلك النظرة للدولة والمجتمع من حيث الإقليم والسلطة بأنواعها، والشعب، وما يرتبط بكل ذلك من مبادئ السيادة والمواطنة، والعلاقات الدولية، وحقوق الإنسان، والتعددية الدينية والثقافية وغيرها[1].وسيختلف الأمر تماما مع المفكرين المسلمين في العصر الحديث الذين رأوا في الوثيقة إنجازا عظيما في مجال تحديد العلاقة بين مكونات المجتمع بمعزل عن انتماءاته القلبية أو العرقية أو الدينية. ولا يتردد محمد حميد الله في أن يُطلق على «صحيفة المدينة» بأنها أقدم دستور مسجل في العالم، وهي في نظره مثال طريف للغة القانونية وكتابة الوثائق في ذلك العصر. وقد حسب لها النصارى الأوربيون من الحساب أكثر مما حسب المؤرخون المسلمون وعلقوا عليها أهمية كبيرة[2].

علاقة المسلمين باليهود من خلال «صحيفة المدينة»

ورد في «صحيفة المدينة» ما يلي: «وأنّه مَن تبعنا من يهود فإنّ له النصرَ والأسوةَ غير مظلومين ولا مُتناصرين عليهم....]. 24 وأنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا مُحاربين. 25.وأنّ يهود بني عوف أُمّة مع المؤمنين، لليهود دِينهم وللمسلمين دِينهم، مَواليهم وأنفسهم إلا من ظلَم وأثم، فإنه لا يُوتِغ (أي لا يهلك) إلا نفسه وأهل

(1) عمرو عثمان: دستور المدينة: قراءة في تاريخ نص، أسطور للدراسات التاريخية، ع 3، يناير، 2016، الدوحة، ص 84

(2) محمد حميد الله: أقدم دستور مسجل في العالم، وثيقة نبوية مهمة، تعريب أبو الحسن الندوي، 1938، ص 99

بيتِه. 26.وأنّ ليهود بني النّجّار مثل ما ليهود بني عوف. 27.وأنّ ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف. 28.وأنّ ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف. 29.وأنّ ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوف. 30.وأنّ ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف. 31.وأنّ ليهود بني ثَعلَبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا مَن ظلم وأَثم فإنّه لا يُوتِغ إلا نفسَه وأهلَ بيته. 32.وأنّ جَفْنَةَ بطنٌ مِن ثعلبة كأنفسهم. 33.وأنّ لبني الشُّطَيبَة مثل ما ليهود بني عوف، وأنّ البرَّ دون الإثم. 34.وأنّ موالي ثعلبة كأنفسهم. 35.وأن بطانة يهود كأنفسهم. 36.وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد (صلى الله عليه وسلم). / 36ب. وأنّه لا يَنحَجِز على ثأرِ جُرحٍ، وأنه مَن فَتَك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظَلم، وأنّ الله على أبَرِّ هذا. 37.وأنّ على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأنّ بينهم النصر على مَن حاربَ أهل هذه الصحيفة، وأنّ بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم. 37/ ب. وأنه لم يأثم امرؤٌ بحليفه، وأنّ النصر للمظلوم. 38.وأنّ اليهود يُنفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين»[1].

استهلت «صحيفة المدينة» بالديباجة الآتية: «هذا كتاب من محمد النبي «رسول الله»بين المؤمنين والمسلمين من قريش و»أهل» يثرب ومن تبعهم وجاهد معهم». فقد أحدثت تغييرا كبيرا في مجتمع المدينة المنورة الذي انتقل من نظام الأسرة والقبيلة والعشيرة والطائفة إلى نظام الأمة الواحدة، وأسست لمبدأ المواطنة الذي اتخذ مسارين اثنين: أولهما يتعلق بالمسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله وانقادوا لشرع الله يعملون به ويطبقونه، وثانيهما يتعلق بالتآلف والتعايش السلمي بين المسلمين وبين من لم يعتنق الإسلام من الوثنيين من الأوس والخزرج وأهل الكتاب[2]. ولا شك في أن كل طرف أو متعاقد هو مسؤول عن أعضائه مثلما يظهر في البنود من 1 إلى 11. وتُركز البنود من 13 إلى 21 على ضرورة تعاونهم جميعا في الحروب. فيما اشترطت على المتعاقدين في البنود 14 و17 و19 و44 أن يهبوا لنصرة المدينة إن داهمها المعتدون.

(1) نقلا عن محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت، 1985، ص 61-62.

(2) رشيد كهوس: فقه السيرة النبوية، المفهوم والأسس والنماذج، دار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة، 2017، ص 353

ولا شك في أن تحديد العلاقة بين المسلمين واليهود الذي يُشكل قسما من «صحيفة المدينة» استأثر باهتمام الباحثين في العصر الحديث، وإن لم تخلُ نظراتهم إليها من تساؤل عن عدم ذكر القبائل اليهودية الثلاث الأكثر شهرة. إذ من المعلوم أن الصحيفة اقتصرت على ذكر قبائل اليهود منفردة بأسمائها، وذلك في صيغة الخطاب الخاص المتعلق بفروع وبطون القبائل اليهودية (بنو عوف، بنو ساعدة، بنو جشم..) المتحالفة مع بطون الأنصار. أما الصيغة الثانية من خطاب صحيفة المدينة فقد جاء بصيغة الخطاب العام مثلما يظهر في بعض البنود: وأنه ممن تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

إن عدم الإشارة بالاسم في الصحيفة إلى القبائل اليهودية الرئيسية لا يعني حسب ميكائيل لكير Michael Lecker أنها لم تعقد عهودا مع النبي محمد. بل على العكس من ذلك تماما فقد سارعت بعد الهجرة قبائل بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة إلى إبرام مواثيق مستقلة معه. لكنها كانت تضمن لهم فقط نوعا من الحماية وعدم الاعتداء. بخلاف الالتزامات الكبرى التي وُضعت على عاتق اليهود المنصوص عليهم في الصحيفة[1].

ويبدو حسب محمد حميد الله أن اليهود لم يشتركوا في هذه المملكة الاتحادية بصفة جماعة بل دخلت فيها كل قبيلة كوحدة منفردة. وكان من نتائج ذلك أن المسلمين لما حاربوا بعض قبائل اليهود أو أمروا بإجلائها عن المدينة لم تكتف سائر القبائل اليهودية بالسكوت فحسب بل ساعدوا المسلمين في بعض الأحيان مساعدة حربية، ورغما عن محاربة بعض القبائل بقيت هذه المعاهدة أو الدستور ثابتة في القبائل اليهودية الأخرى ولم يعد ذلك نسخا لها[2].

وترتكز «صحيفة المدينة» في نظرتها إلى اليهود على مجموعة من الأسس:

مساواة اليهود وغيرهم من أهل الكتاب في الحقوق السياسية والمدنية مع المسلمين:

(1) Michael Lecker : The Constitution of Medina, Muhammad’s First Legal Document, The Darwin Press, Inc, Princeton, New Jersey, 2004, p 48

(2) محمد حميد الله: أقدم دستور مسجل في العالم، وثيقة نبوية مهمة، مرجع سابق، ص 14

وهو ما يعني بأن المواطنة لم تعد منحصرة في المسلمين وحدهم، بل امتدت لتشمل غير المسلمين، معتبرة أهل الكتاب، وتحديدا اليهود الذين يشاركونهم السكن، والذين اختاروا الانضمام إليهم، مواطنين، وأنهم أمة مع المؤمنين، ما داموا قائمين بالواجبات المترتبة عليهم، فاختلاف الدين لا يجب أن يكون سببا للحرمان منم مبدأ المواطنة[1].

ويذهب جوان كول Juan Coll إلى القول بأن الرسول صلى الله عليه وسلم أقام أمتين إحداهما ضيقة تضم عموم المؤمنين ومن يخضع لهم والثانية أوسع تجمع داخلها اليهود والمتحالفين معهم من أتباع الديانات التوحيدية. ويعتقد جوان كول في السياق نفسه أن الأمة الثانية في نظر الرسول أمة إبراهيمية. فالقرآن الكريم يعتبر النبي إبراهيم عليه السلام هو الجد الأعلى للمسلمين وليس أبا من آباء اليهودية كما تذهب إلى ذلك اليهودية. ولهذا فإن القرآن الكريم يسمح للمسلمين بأن يتزوجوا اليهوديات والنصرانيات وأن يتقاسموا الأكل معهم. في حين أن القانون الروماني المسيحي كان يمنع اليهود من الزواج من المسيحيات مهددا كل من اخترق هذا القانون بالقتل. كما أن علماء المسيحية انتقدوا بشدة تناول الطعام اليهودي واعتبروه مخزيا ومدنسا. وأسهم القانون المسيحي في خلق «عرق» مسيحي لا يقبل سوى المسيحيين. في حين أن القرآن الكريم كان له الفضل في خلق «عرق» يتسم بالتنزع ويتسع لكل الإبراهيميين. ومن هنا فإن صحيفة المدينة تختلف تماما عن قوانين الكنسية المسيحية الرومانية. فهي تقدم رؤية لمجتمع غير قائم على العقيدة، متنوع من الناحية الدينية، ويرتكز على الوفاء والأمن ..[2].

ويؤكد هيربرت بوسه على أن الدولتين الزرادشتية والنصرانية لم تعرفا قوانين دستورية مضمونة تتعلق بالأقليات الدينية مثلما هو الحال في الإسلام. مضيفا أن هذه الحقوق معروفة في القرآن أي القانون الإلهي[3].

---

(1) رشيد كهوس: مرجع سابق، ص 354

(2) Juan Cole : Muhammad, Prophet of Peace Amid The Clash of Empires, Nation Nooks, New York, 2018, p 43

(3) هيربرت بوسه: أسس الحوار في القرآن الكريم، دراسة في علاقة الإسلام باليهودية والمسيحية، ترجمة أحمد محمدو هويدي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005، ص 179

التعددية الدينية وضمان حرية المعتقد

ربطت صحيفة المدينة بين المسلمين واليهود في عدد من البنود بعلاقة الولاء أو الحلف. وأقرت بأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين. وهو حق ينطبق على يهود بني النجار، ويهود بني الحارث، ويهود بني ساعدة، ويهود بني جشم، ويهود بني ثعلبة، ويهود بني الأوس، ويهود جفنة، ويهود بني الشُّطيبة، بل هو حق لبطانة اليهود فضلًا عن بطونهم ومواليهم. واعترفت بالتعددية الدينية بعبارة مباشرة: «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم»، وهذا يذكّر بما ورد في القرآن الكريم -: «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ» (الكافرون:6). وقد أعطى بند آخر لليهود بجانب استقلالهم بعقيدتهم استقلالهم الاقتصادي حيث نصت على أنهم ينفقون على أنفسهم مثلهم في ذلك مثل المسلمين، لكنهم يشتركون معهم في أداء نفقات الدفاع عن أمة يثرب لأن لضمان السلم واجباته وتكاليفه[1]. ومن هنا يمكن القول أن صحيفة المدينة كفلت حق المواطنة لكل من هو على أرض المدينة، وهذا يعني حسب الشيخ عبد الله بن بيه أن مجرد الانتماء إلى الأرض هو أحد مقومات المواطنة. وهو ما وضع الأساس لمجتمع متعدد الأعراق والديانات.

مدى حضور «صحيفة المدينة» في أوساط الشباب

على الرغم من أهمية ما جاء في «صحيفة المدينة» من مبادئ تؤسس لمفهوم المواطنة والتعددية الدينية، والتي حظيت بمكانة مرموقة في الكتابات الإسلامية الحديثة، فإن تداولها في أوساط الشباب لا يزال محدودا في عصرنا الحالي.

والأدهى من ذلك أنه لم يتم بعدُ استلهامها في مواجهة كل أشكال العنف المستشري والذي اتخذ في العقود الأخيرة أبعادا متعددة ومتفاوتة. وقد لخصها الشيخ العلامة بن بيه في كتابه الموسوم بما هذه بطريق الجنة، نصيحة للشباب، فيما يلي: البعد النوعي المتمثل في ارتفاع درجة العنف وتعدد مظاهره وتوظيفه ضد أبناء الوطن الواحد، والبعد المكاني والمقصود به اتساع رقعة العنف في البلاد العربية والإسلامية، والبعد الزمني المتمثل في استمرار وتفشي هذا العنف إلى درجة أنه أصبح شيئا مألوفا، والبعد الفكري والنفسي الذي أدى إلى ظهور أشد الأفكار تطرفا وأكثر الفتاوى شذوذا وتعصبا

(1) عبد الهادي بوطالب، ص 89.

وتحريضا، والبعد الدولي المرتبط بالأبعاد السابقة حيث تم تشويه صورة الإسلام عالميا وأصبح يوصف بأنه دين إرهاب[1].

ومن هنا فمن واجبنا اليوم استثمار السيرة النبوية الشريفة، ولاسيما في تحديدها الجلي لعلاقة المسلم بالآخر المختلف عقديا ولغويا، وجعلها مرجعا أساسيا أو خارطة طريق واضحة المعالم تُرشد شباب أمتنا إلى المنهج القويم للديانة الإسلامية السمحة، وتحذرهم من مخاطر التطرف ومزالق العنف الخطيرة.

ولا يتأتى ذلك إلا من خلال إدراج «صحيفة المدينة» في الكتب المدرسية المختلفة (كتب التربية الدينية أو الإسلامية وكتب التربية المدنية، وكتب التاريخ..)، مع إعطائها الأهمية التي تليق بها حتى تنزاح من ذهن الشاب المسلم فكرة أن الإسلام لا يقبل الآخر المختلف. والتعريف بها على نطاق واسع في وسائل الإعلام التقليدية وفي منصات التواصل الاجتماعي وفي المؤتمرات والندوات العلمية، ثم مقاومة كل أشكال التطرف التي تُغذيها بعض التيارات الدينية المتشددة أو المحظورة، وما صاحبها من انتشار وذيوع بعض الفتاوى المحرضة على انتهاك حقوق الأقليات الدينية واضطهادها باسم الدين. هذا الدين الحنيف الذي أوصى بالأقليات الدينية خيرا، بل جعلهم في ذمة المسلمين عبر مختلف العصور. فقد عاشوا في ظل الحضارة العربية الإسلامية تاريخا يتسم بالتعايش والتسامح والتفاهم. وأي اعتداء أو إكراه في الدين فهو غير مقبول ومرفوض. والإسلام منه براء. قال تعالى: لا إكراه في الدين. ومن هنا فإسلام المكره لا يصح. فما يجمع بين الإرهابيين ليس هو الدين، وإنما الجهل به لأن الدين هو نور ومعرفة وحكمة وسبيل للسلام. فما أحوجنا لمراكز تعنى بتدريس السيرة النبوية الشريفة، وتعمل على تطبيقها في الواقع.

الخلاصة

إن «صحيفة المدينة» هي دستور كفل جميع الحقوق الإنسانية كحق الاعتقاد وممارسة الشعائر والمساواة والعدل. إنها رؤية خاصة لكيفية التعايش داخل المجتمع. وهي أنموذج لثقافة التسامح والعيش المشترك بسلام في ظل واقع عملي يسوده الحوار

(1) الشيخ عبد الله بن بيه: ما هذه بطريق الجنة، نصيحة للشباب، منشورات تعزيز السلم في المجتمعات المسلمة، ص 8-9

بين كل الأطراف التي تجمعها مصالح مشتركة هي تأسيس صريح وتعزيز واضح للسلم المجتمعي الذي يندرج في قواعد الخير العام. بل يمكن الجزم بأنها ترسيخ لحوار داخلي بين مكونات المجتمع المسلم والحاضن لتعددية دينية، فصحيفة المدينة صالحة لكل زمان ومكان. إذ أبرزت بشكل واضح المكانة التي احتلتها الأقليات الدينية في العهد المحمدي، وكانت الوثيقة مثالا صارخا نستشف من خلاله بنودا للحريات والحقوق والمساواة. فالكل سواسية في الحقوق والواجبات. إنها ثمرة من ثمرات الحوار الذي أسسه الرسول عليه الصلاة والسلام بالموازاة مع تأسيس الدولة الإسلامية. مما يعكس أهمية الحوار باعتباره أداة لمد الجسور بين أبناء الأمة الواحدة وبين الأفراد والجماعات. فلا تنمية سواء على المستوى المحلي أو الدولي دون حوار. لهذا ف»صحيفة المدينة» لم تكن سوى لبنة أولى أعقبتها لبنات أخرى أسهمت على امتداد تاريخ الإسلام في تحديد علاقة الإسلام بالأديان الأخرى. الأمر الذي أفضى إلى مشاركة اليهود والمسيحيين وغيرهم من أتباع الديانات الأخرى في نشأة وفي تطور التراث العربي الإسلامي.

لائحة المصادر والمراجع

(بالعربية)

- القرآن الكريم برواية ورش.
- بن بيه، عبد الله. ما هذه بطريق الجنة، نصيحة للشباب، منشورات تعزيز السلم في المجتمعات المسلمة.
- بوسه، هيربرت. أسس الحوار في القرآن الكريم، دراسة في علاقة الإسلام باليهودية والمسيحية، ترجمة أحمد محمدو هويدي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2017
- بوطالب، عبد الهادي. حقيقة الإسلام، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، بيروت، 1998
- جعيط، هشام. في السيرة النبوية (3) مسيرة محمد في المدينة وانتصار الإسلام، دار الطليعة، بيروت
- حمادة، فاروق. العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، دار القلم دمشق.
- حميد الله، محمد. أقدم دستور مسجل في العالم، وثيقة نبوية مهمة، تعريب أبو الحسن الندوي، 1938
- حميد الله، محمد. مجموعة الوثائق السياسية للعد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت، 1985
- عثمان، عمرو. دستور المدينة. قراءة في تاريخ نص، أسطور للدراسات التاريخية، ع 3، يناير، 2016، الدوحة
- كفايتي، سعيد. الحوار في الإسلام، الدروس المستخلصة، منشورات مقاربات، فاس، 2016

- كهوس، رشيد. فقه السيرة النبوية، المفهوم والأسس والنماذج، دار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة.

(بلغات أجنبية)

- Cole, Juan : Muhammad, Prophet of Peace Amid The Clash of Empires, Nation Nooks, New York, 2018
- Lecker, Michael : The Constitution of Medina, Muhammad's First Legal Document, The Darwin Press, Inc, Princeton, New Jersey, 2004
- Montgomery Watt, William : Mahomet à Médine, Payot, Paris, 1959